جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

دراسات أولية : المرحلة الثالثة

المادة : الأدب الأندلسي

عنوان المحاضرة:(الأدب في عصري الطوائف والمرابطين)

استاذ المادة: أ. د فائزة رضا شاهين

١٤٤٥هـ **٢٠٢٤م**

الأدب في عصري الطوائف والمرابطين

ازدهر الادب العربي في هذين العصرين ازهارا عظيما لم نشهد له نظيرا في العصور التي سبقت وربما في العصور التي تلت ذلك لان عصر الطوائف والمرابطين كان يمثل نضج الثقافة وكان حظ الادب من هذه الثقافة وافرا وقد كرست دراسات كثيرة لدراسة الحياة الأدبية في هذين العصرين والكشف عن مناط الابداع والتفوق فيما سواء في دراسات تناولت الأدب بصورة عامة ام دراسات تناولت الشعر ام النثر ام دراسات تعرضت لادباء انفسهم شعراء وكتاب ظهر في هذين العصرين عدد كبير من شعراء منهم في عصري الطوائف ابن دراج القسطلي وابن شهيد الاندلسي وأبو جعفر بن الابار الخولاني وابن زيدون وابن عمار الاندلسي وابن الحداد وابن وهبون والمعتمد بن عباد وابن اللبانة الداني وفي عصر المرابطين : ابن عبدون ، وابن حمديس، والحكيم ابو الصلت الدائي ، وابن الزقاق وابن خفاجة ويقال والأعمى التطليلي، والرصافي البلنسي ولم يقتصر قول الشعر على فئة معينة من الشعراء بل عن طبقات المجتمع الاندلسي في هذا العصر ، ومنهم ذوي مهن والفلاح في اشبيلية ومنهم ابن القزاز صاحب الموشحات والجزار السرقسطي ، ومنهم الفقيه والعالم وللمرأة الاندلسية نصيب وافر فيه. وقد عبر عن هذه الحقيقة (ستانلي بول) بقوله: ((ويظهر ان العالم الاسلامي اتجه بروحانيته الى الهة الفنون فمن الخليفة في عرشه إلى النوتي في سفينته كنت تسمع النظم الفائق في مشاهد الاندلس وجمال مدنها)) ومن الحقائق البديهة أن ينتعش في مثل هذه الظروف الشعر ، وقد وجدنا فنوناً من الشعر تحظى من العناية دون فنون أخرى ، وقد تصدر في هذا المقام المديح ، وقد بلغ من ثقة الشاعر بمديحه وعدم اكتراثه بالممدوح حتى لو كان مثل المعتضد - أن حلف أن يمدح أحداً منهم بقصيدة الا بمائة دينار. ولم يكن الغزل أقل حظوة وكذلك شأن الرثاء والزهد والتصوف.

وأما الاتجاهات الجديدة في هذا العصر كرست لثلاثة موضوعات رئيسية وهي شعر الطبيعة ، وشعر رثاء المدن والممالك ، وشعر الغربة والحنين والجديد فيها زيادة مقدار الموضوع وتنوعه والبراعة في صوعه، وتفاعله لصيق مع البيئة الأندلسية. واننا نلمح اثر الثقافة العربية عميقاً في اشعارهم وهي تبدو في نسب متفاوتة بين الشعراء ، حتى تجد اشعارهم معرضاً للثقافة بكل ابعادها تاريخاً وأدباً وبلاغة وفلسفة يقحمها الشاعر ادلاء بفضله واعراباً عن ثقافته وهذا الاتجاه يتمثل لدى عدد من الشعراء منهم : ابن دراج ، وابن حزم ، وابن عبدون .

وقد اختلفت الآراء حول الأدب في عصر المرابطين ، اذ رأى الدارسين ان سوق الشعر كسدت وان الشعراء دالت دولتهم وذلك لأن المرابطين لم يلتفتوا اليهم . وقد اخذت هذه الفكرة أبعادها عند الدكتور مصطفى عوض الكريم، يحددها بالكساد والضياع ثم لم يلبث أن يجد حال الادباء مأساة تركت ظلالها على الشعر ، حتى أن مدح المرابطين لم يأت بدوافع الاعجاب وانما كان (ضربة اعذب) كان على الشعراء ان يمدحوا ليعيشوا بسبب الظروف القاسية، ولا ينفرد هذا الباحث بهذا الرأي اذ يتابع في رأيه عدداً من المستشرقين الذين ذرفوا دموع التماسيح على الدولة المعتمد بن عباد بعد نفيه إلى المغرب ومنهم المستشرق دوزي وهناك باحثون كانت ارائهم أكثر اعتدالاً ومنهم الدكتور احمد امين. ومنهم من يرى غير ذلك ، اذ لم يجد تخلفاً في الحياة الثقافية والفكرية في عهد المرابطين وهو الدكتور مصطفى الشكعة وقد مثل هذا الرأي ايضاً الاستاذ عبد الله كنون، اذ ساق لنا امثلة كثيرة على عناية المرابطين بنهضة العلم والأدب ، ولم يجد الاستاذ مصطفى صادق الرافعي ا ختلافا كبيرا بين عصر المرابطين عن العصر الذي سبقه.

موضوعات الشعر

الغزل:

تستخدم في هذا الموضوع اصطلاحات اخرى الى جانب الغزل هي : النسيب والتشبيب والفرق بين هذه الالفاظ اللغوية - محدود، ولكن الاستخدام الأدبي يوشك أن يحدد بكل لفظة دلالة خاصة. فالغزل : هو الاستهتار

بمودات النساء وتتبعهن والحديث اليهن . وان لم يتعلق القائل منهن بهوى أو بصبابة، أو هو اللهو مع النساء في الشعر والتشبيب : مايقصد به الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومسائلة الاطلال أو هو ذكر الشاعر ايام اللهو والشباب في شعره والنسيب: أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من شكوى وما يعرض له من محاسن المرأة وأكثر الدراسات التي تناولت ابعاده واتجاهاته، افردت لدراسة الشعراء الذين تعرضوا لهذا الموضوع وهو مجله يدور في ثلاثة اتجاهات : عذري وحسي وتقليدي. وهي درجات يتفاوت في النزوع اليها. وتكاد تجتمع في ديوان ابن زيدون الذي يعد من ابرز الشعراء في هذا الموضوع اذ يحتل حوالي ثلث ديوانه. ويحدثا الدكتور شوقي ضيف عن مراحل حب ابن زيدون للولادة فيراها ثلاثا نعيم وشقاء ويأس. وتمثل نونيته اروع قصائده في المرحلة الثانية وهي التي بها الشقندي فقال : ((لم يقل مع طولها في النسيب أرق منها السعدي وتبلغ ابياتها اثنين وخمسين بيتاً ، وقد شغف الشعراء معارضتها وتخميسها وتسديسها واحرزت مكانة عالية في الأدب العربي .

قال ابن زيدون:

اضحى الثنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ان الزمان الذي مازال يضحكنا انسا بقربهم قد عاد بيكينا

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بان نقص فقال الدهر أمينة

وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن ومايرجي تلاقينا

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

وقد اعجب المستشرق الاسباني غارسيا غومس بأبن زيدون وعده أعظم شاعر قديم انجبه الأندلس ، وعلق على البيت السادس منها بقوله : ((وهكذا يختلط الأبيض والأسود أحدهما بالآخر، كما اختلط في رقعة الشطرنج التي لعب ابن زيدون عليها دور حبه الخاسر))

ولابد ان ننوه بتيار عربي جديد وجدت جذوره في المشرق لكنه لم يلبث إن استقوى في بيئة الاندلس ، اشار اليه ابن داود الأصبهاني في الباب الثامن من كتابه (الزهرة) تحت عنوان (من كان ظريفاً فليكن عفيفا) وقد اطلق عليه الدكتور احسان عباس العفاف عند المقدرة ومن أبرز من نظم فيه، ابن حزم ، ومما قاله ابن الآبار:

وعصيت مسلطان الهوى واطعت سلطان العفاف

ان شيوع الاتجاه الماجن - كما يرى الدكتور احسان عباس- لا يجعل منه طريقة حياة لانه لم يكن ينشد التبدل من اجل التبدل نفسه فضلا عن أن أحدا من الشعراء الاندلسيين لم ينفرد به على النحو الذي شهر به الشعراء اليتيمه مثل بن الحجاج و ابن سكرة وصريع الدلاء.

ان مجتمعاً مثل المجتمع الاندلسي ، تعددت اجناسه وقومياته واديانه لابد ان يتضح بما فيه ، وقد تجلى هذا التأثر في مجال الغزل ولاسيما في قصائد ومقطعات ابن الحداد الذي تغزل في فتاة سماها(نويرة) كناية عن اسمها الحقيقي (جميلة) احبها في صباه، واخذ يتردد على الكنائس لرؤيتها وهي تؤدي شعائر دينها . فقال :

فإن بي للروم رومية تكنس ما بين الكنيسات

اهيمُ فيها والهوى ضله بين صواميع وبيعات

افصح وجدي يوم فصح لهم بين الأربطي والدويحات

ومن خصائص الغزل في الأندلس نجد شعراء يتغزلون بصفرة الشعر وزرقة العيون ، فيشبهوا الأغصان والمياه بالعيون الزرق، والمجاديف بالاهداب ، قال ابن خفاجة:

وغدت تحف به الغصون كانها هدب تحث بمقلة زرقاء

ما في المشرق فاننا نجد جرير قد قتلته العيون السود:

إن العيون التي في طرفها حور قتلتنا ثم لم يُحيين قتلانا

المديح:

هو بالاصل شكر للمدوح على يد اسداها لا يستطيع الشاعر اداء حقها الا بشعر. وفي عصر الطوائف والمرابطين - اي بعد حقبة زمنية - نلاحظ ازدهار الموضوع لوجود التنافس الشديد بين ملوك الطوائف ، فكل يسعى في استقدام الشعراء الى دولته، وعلى هذا النحو تنافس الملوك في اكرام الشعراء. ان تقاليد القصيدة المدحية بقيت على ما كانت عليه في معانيها واسلوبها ، فدارت حول الخصال الأربع الرئيسية : العقل والعفة والعدل والشجاعة . الا ان عدداً من المدائح امتزجت فيها طريقة القدماء بمذهب المحدثين . ويقرن المديح باغراض اخرى ، فالغزل اول ما يستفتح به الشاعر قصديته، وهو منهج تقليدي جرى عليه الشعراء قديما وقد يستفتح بوصف الطبيعة اذ كانت مجالسهم في وسط الرياض . وازاء كثرة المادحين والممدوحين نتساءل ، أكان هذا الغرض تكسباً محضاً ام انه اختلط باعجاب الشاعر ، ذاته بشخص الممدوح ؟ من التجني رمي المدح جملته بهذا الوصف القاسي فالمدح فن أصيل من فنون الشعر لا يعيبه ان معظم الشعراء خرجوا به الى التكسب والارتزاق.

وكان ملوك الطوائف ازاء كثرة الشعراء يمحصونهم ويختبرونهم وينتقون الشاعر من المتشاعر فمن قصد دولة المعتمد بن عباد في اشبيلية الشاعر ابن حمديس وابو العرب الصقلان ، ولابن حمديس قصة في اختبار المعتمد اياه يبدو ان (ديوان الشعراء) لم يكن موجوداً في جميع ممالك الطوائف بل نجده في مملكة بني عباد، والشعراء الذين تدخل اسماؤهم في الديوان هم (الشعراء المنتمون) ويذكر الدكتور احسان عباس ضربين آخرين من الشعراء فضثلا عن الضرب الأول وهما

١- الشعراء الذين بلغوا اعلى مناصب الدولة ومنهم ابن زيدون وابن عمار وابن عبدون وكان يطلق على بعضهم لقب (ذو الوزارتين) أي رئاسة الشعر والنثر.

٢- الشعراء الجوالون وهم الذين لا يلتزمون اميراً واحداً بل يقصدون أكثر من واحد كما حدث لابن عمار وبن الحداد وابن اللبانة.

وهناك طبقة من الشعراء ترفعت عن التجوال وتركت المديح الى فنون الشعر الأخرى لسبب مذهب ذاتي او ديني امثال ابي اسحاق الالبيري وابن العسال وابن خفاجة الأندلسي .

ويصور لنا ابن وهبون المرسي المذهب السائد في مديح الشعراء من ان الابداع في المديح مقرون بالعطاء فحين اعجب المعتمد بن عباد ببيت للمتنبي في مديح سيف الدولة قال ابن وهبون:

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما تجيد العطايا اللها تفتح اللها

وحين انشد بعض الحاضرين ببيتين لابن وهبون في مجلس المعتمد بن عباد

قل الوفاء فما تلقاه من احد ولا يمر لمخلـــــوق على بال

وصار عندهم عنقاء مغربة او مثل ما حدثوا عن الف مثقال

يرسل له المعتمد الف مثقال ذهب فيأتيه الشاعر شاكرا فيقول له (الان حدث بها لاعنها وفي رواية أخرى (لقد امرنا لك الف دينار، وبالف أخرى تنقفها)

ومن نماذج المديح قول ابن اللبانة يمدح المعتمد بن عباد وابناءه الأربعة :

تحللت حتى غاية الأسد الورد وانزلت حتى ساكن الابلق الفرد

وجردت دون الدين سيفك فاثنى من النصر في حلي من الدم في غمد

وحسب الليالي انها في زمانه بمنزلة الخيلان في صفحة الخد

الرثاء :

وهو من اشهر موضوعات الشعر نظماً ، واصدق ما يكون الشاعر فيه ، فقد سئل البحتري عن سبب تفوق رثائه على مديحه قال ((من تمام الوفاء أن يعلو على المدح الرثاء ولم يخرج شعراء الأندلس في مراثيهم عن طريقة العرب التي تدور في افلاك ثلاثة هي (التأبين والندب والعزاء) والمراد بالتأبين : الثناء على الشخص حيا او ميتا ثم اقتصر على الميت فقط ،والمراد بالندب : النوح والبكاء على الميت ،والمراد بالعزاء الصبر على الميت الموت والمؤاساة بفقد الميت العزيز ويرى ابن رشيق : ان لا فرق بين المدح والرثاء سوى أن الأول في حي والثاني في الميت. ويمكننا ان نشير الى بعد رابع يضاف الى ما تقدم وذلك هو الحديث عن فلسفة الحياة والموت والبقاء والفناء يعرض له الشعراء في قصائدهم فتاخذ طابعا عاما لديهم .

ومن رثاء الأقارب ، رثاء ابن حمديس لأبيه و زوجته وجاريته ، ورثاء الحصري القيرواني ابنه عبد الغني ديوانه اسماه (اقتراح القريح) إذ كان ابن تسع سنين وكان ملازماً لقراءة القرآن وترتيله ومعرفته بالقراءات والروايات ومن ذلك قوله:

حاشاك من نار على الاحشاء يزداد ضعفاً حرها بالماء

أودى الذي في وجهه ويمينه ماءان ماء حيا وماء حياء

لو كان كل ابن نجيباً مثله منع الإباء بكاء على الانباء

تسعى الرجال فلا تنال بحرصها ما نال في تسع من العلياء

ســـالت حشاشة نفسه من انفه فشهدت منه مصرع الشهداء

ومن الاتجاهات المتميزة رثاء ابن وهبون (٤٨٤هـ) لأستاذه أبي الحجاج الأعلم الشنتمري فقال: (هذا مذهب فلسفي فلما عرج عليه عربي وانما خرج اليه المحدثون ومن الشعراء ومذهب ابن وهبون مشابه لمذهب المتنبي والمعري اذ يقول:

سبق الفناء فما يدوم بقاء تفنى النجوم وتسقط العلياء

نفسي وجسمي إن وضعتهما معاً آل يذوب وصخرة خلقاء

ما النفس الأشعلة سقطت الى حيث استقل بها الثرى والماء

كذبت حياة المرء عند وجودها وجد الجمام وكان منه الداء

فقد كان ابن وهبون يرى الحياة والموت أو البقاء او الفناء امران من طبيعة الأشياء, ومن سنن الكون . وان النفس شعلة يحملها عنصران هما الماء والتراب . وان حقيقة الموت ماثلة في الحياة.ومن الاتجاهات الطريفة التي تستوقفنا رثاء الشاعر لنفسه قبل موته فمن ذلك رثاء ابن شهيد لنفسه. وقد قالها عند مرضه ومطلعها:

انوح على نفسي اندب نبلها إذا أنا في الضراء ازمعت قتلها

الزهد والتصوف

المراد بالزهد لغة : الرغبة عن الشيء. وفي الاصطلاح : ترك المباح المحبوب المقدور عليه لأجل الله تعالى . واختلف الدارسون في اصل مفهوم التصوف . فمنهم من رأى أنه من الصفاء والصفوة. وقيل من الصفة واهلها زهاد والمهاجرين والأنصار . وقيل انها من الصف الأول لصلاتهم فيه وقيل من الكلمة اليونانية (صوفيا) التي تعني الحكمة . ولكن الأرجح ان التصوف مصدر الفعل الخماسي تصوف وهو من الصوف. ويتشابه مفهوما الزهد والتصوف احياناً ، ويتجلى الفرق بينهما ان التصوف يأتي في مرحلة تالية للزهد، كما يقول ابن خلدون : ((وقد كان ذلك الزهد فاشياً في الصحابة والسلف ولما عم الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إل مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية أو المتصوفة)).

ولد الزهد الاندلسي في احضان الثورة على الحكم الربضي اذ كان الأتقياء ينظمون اشعار الزهد ويتغنون بها في الليل ويضمنونها التعريض به فضلاً عن عوامل بيئية ذووية ، ومنها الحياة اللاهية في المدن، والانقياد لدواعي النفس في الشيخوخة ، وقوة التيار المشرقي، وذيوع اشعار أبي العتاهية، ويمكننا نعد مذهب ابن مسرة عاملا من عوامل اسقواء حركة الزهد في الاندلس وتأتي في مقدمة شعراء الزهد (ابو اسحاق الالبيري) الذي اتجه نحو المشاركة الفعلية لحل مشكلات الأندلس في عصره، وهي دعوته لخلع الوزير اليهودي (ابن النفريلة) من الوزارة في دولة باديس بن حبوس في غرناطة، فكانت قصيدته بمثابة البيان الأول للثورة عليه: قال:

الا قُل لصنهاجة اجمعين بدور الندى واسد العرين

لقد زل سيدكم زلة تَقرُ بِهَا اعْيُنَ الشامتين

وقد استطاع الالبيري ان يقرع بشعره الزهدي رؤوس الغارقين في ذنوبهم بعصا من النار التي تغلي باصحابها ، فيصورهم مستغيثين معترفين نادمين لا تقبل توبتهم :

ويل لأهل النار في النار ماذا يقاسون من النار

تنقذ من غيط فتغلي بهم كمرجل يعني على النار

وكلهم معترف نادم لو تقبل التوبة في النار